# تطور سندات الكتابة
# ودورها في ترقية الوراقة

**د. شعباني بدرالدين**
**جامعة قسنطينة 2**

**تمهيد**

كانت جميع كتابات الأمم من سكان الشرق والغرب اثنتا عشر كتابة، وهي: العربية ، والحميرية، واليونانية، والفارسية، والسريانية، والعبرانية ، والرومية ، والقبطية ، والبربرية ، والأندلسية ، والهندية ، والصينية، فخمس منها اضمحلت وبطل استعمالها وذهب من يعرفها، وهي: الحميرية ، واليونانية، والقبطية، والبربرية، والأندلسية، وثلاث قد بقي استعمالها وعُدم من يعرفها في بلاد الإسلام، وهي: الرومية ، والهندية ، والصينية، وحصلت أربع هي مستعملات في بلاد الإسلام وهي: العربية والفارسية والسريانية والعبرانية[1].

**وقد انتشرت الكتابة بصورة واسعة بعد اختراع الورق في الألف الثّالث قبل الميلاد (حوالى 2700 ق.م)، فقد تمكن قدماء المصريين من اخترع مادةً صالحةً للكتابة عرفت باسم ورق البردى، وكان هذا الأمر من أعظم الاختراعات في تاريخ البشرية. ذلك أن أقدم الشواهد الأثرية الدالة على الكتابة تعود إلى منتصف الألف الرابعة قبل الميلاد، وهي تلك الرقم الطينية الصغيرة التي نقشت عليها الكتابة التصويرية التي ابتدعها السومريون ثم طوروها إلى أن حولوها إلى نظام كتابي تطغى عليه السمات الصوتية وعرف بالكتابة المسمارية، وفي سنة 1948م تمكن العالم الأثري دكتور شيفير (Sheffear) في مدينة أوغاريت ( رأس شمرة ) قرب اللاذقية من العثور على رقيم صغير يحتوي عددا من الصيغ المسمارية، وكان عددها ثلاثون شكلا، تبين له بعد الدراسة والتدقيق أن هذه الأشكال المسمارية ما هي إلا حروف أبجدية لم يعرف لها نظير، بل لقد تأكد للباحثين أن هذه الأبجدية هي الأولى في العالم وأنها ترجع إلى الألف الثانية قبل الميلاد[2]، وقد تبناها الكنعانيون على ساحل البحر الأبيض المتوسط منذ العصور الأولى حيث كان من المألوف هناك استعمال الكتابة المسمارية التي كانت منتشرة في بلاد الرافدين والتي استمرت وسيلة الأكاديين، والعموريين القدماء ثم وسيلة سكان أوغاريت من الكنعانيين، وقد استعملوا الكتابة المسمارية المقطعية، وهي كتابة غير أبجدية كالكتابة الصينية، فقاموا بحذف كثير من الإشارات التي كانت تلازم الكلمات ذات الدلالة الصوتية المختصرة، واكتفوا بصورة تناسب الصيغة الصوتية، وبذلك توصلوا إلى إيجاد النظام الحرفي وليس الصوري، فكانت الحروف الأوغاريتية، وعددها ثلاثون حرفا هي أول أبجدية في العالم[3].**

**أما أسناد الكتابة المتمثلة في الرقم أو اللوحات الطّينيّة فقد كانت أقرب إلى التّداول، وأيسر في التّكلفة من القطع الحجرية، وهي لوحات مكوّنةٌ من طميّ نقيّ ناعم صبّت في قوالب ذات أشكالٍ متعارف عليها، فتخرج اللّوحة على هيئة القرص مسطّحة الوجهين، أو على هيئة ربع الدّائرة، مُستوية السّطح محدبّة الظّهر، أو على هيئة المُستطيل وكانت هذه الأخيرة الأكثر شيوعًا تتراوح أبعادها بين 5 – 6 سم و 25 – 30 سم من حيث الارتفاع.**

**وقد كان الكتاب ينقشون الإشارات على الطين النقي وتُترَك على حالها بعد الكتابة، أو توضع هذه الألواح تحت أشعة الشمس حتى تجف وتكتسب صلابةً مناسبةً ، أما الرقم التي تتضمن اتفاقيات تجارية هامة، ووثائق للدولة وأعمالا أدبية ومعاجم، أو أي نص مخصص للاستخدام العام، فقد كان يتم شويها لحمايتها من التشوه ، فكانت تُحرَقُ في أفرانٍ وتُحفَظ في أغلفةٍ طينيّةٍ بعد أن يُنثَر عليها قليلٌ من مسحوق الطّمي الجاف ليمنع التصاقها بغلافها، ثم يُكسَر هذا الغلاف قبل قراءة لوحته الدّاخلية.**

**واستمرت بقية الشعوب من بعد ذلك تستعمل ما توفره ظروف الطبيعة، وما توصلت إليه عن طريق التجارة سندا للكتابة إلى أن ابتكر الصينيون ورق الكتابة، وانتقلت صناعة الورق إلى بلاد الإسلام، وظهرت تبعا لذلك صناعة الوراقة بالحواضر الإسلامية فنشطت الحركة العلمية وكثرت التآليف وتنوعت، وظهر في مجتمعات المدينة فئة حرفية جديدة عرفت بالوراقين. فكيف تطور سند الكتابة؟ ومتى ظهر الورق في العالم الإسلامي؟ وكيف وصل بلدان المغرب؟ ومن هم الوراقين وما دورهم في المجتمعات الإسلامية؟.**

### 1) تطور أسناد الكتابة في العالم الإسلامي

اختلفت الأمم السابقة للإسلام في اختيار أسناد الكتابة فكا ن أهل الصين يكتبون في ورق يصنعونه من الحشيش والكلاء، وعنهم أخذ الناس صنعة الورق ، وكان أهل الهند يكتبون في خرق الحرير الأبيض ، وكتب الفرس في الجلود المدبوغة من جلود الجواميس، والبقر، والغنم، والوحوش وكذلك كانوا يكتبون في اللخاف، وفي النحاس والحديد ونحوهما، وفي عسب النخل، وفي عظم أكتاف الإبل والغنم، وعلى هذا الأسلوب كانت العرب لقربهم منهم، واستمر ذلك إلى أن بُعث النبيﷺ.

ولم تكن وسائل الكتابة وأدواتها متوفرة وميسرة في العصور الإسلامية الأولى، فكان الناس يستخدمون لتسجيل أفكارهم، وأشعارهم، ومعاهداتهم، ووثائقهم وسائل مختلفة من الأحجار، والجلود، والعظام، والأخشاب بآن واحد، وما إلى ذلك من الأشياء التي توفرها البيئة الصحراوية التي يعيش فيها العرب، وذلك لندرة الورق، ولما شُرع في كتابة القرآن أجمع رأي الصحابة رضي الله عنهم على كتابته في الرق لطول بقائه أو لأنه الموجود عندهم حينئذ ، وبقي الناس على ذلك إلى أن ولي الخليفة هارون الرشيد الخلافة، وقد كثر الورق وفشا عمله بين الناس فأمر ألا يكتب الناس إلا في الكاغد لأن الجلود ونحوها تقبل المحو والإعادة فتقبل التزوير بخلاف الورق فإنه متى محي منه فسد وإن كشط ظهر كشطه، وانتشرت بذلك الكتابة في الورق إلى سائر الأقطار، وتعاطاها من قرب وبعد، واستمر الناس على ذلك النحو إلى الآن[4].

وانحصرت الوسائل التي استخدمها الصحابة لكتابة الوحي في حياة الرسولﷺ فيما يلي:

- **العسب والكرانيف**: والعَسِيبُ ما يقع فُوَيْق الكَرَب الَّذِي لم يَنْبُت عَلَيْهِ الخُوصُ من السَّعَفِ وما نَبَتَ عليه الخوصُ فهو السَّعَف، وهي جريدُ النخل أما الكَرانِيفُ فهي أُصولُ السَّعَفِ الغِلاظُ العِراضُ التي إِذا يَبِسَتْ صارتْ أَمثالَ الأَكْتاف[5].
- **الأضلاع والأكتاف**: ويقصد بها أضلاع الإبل والأغنام، وعظام أكتافها.
- **الرَّق والأديم والقضيم**: كلها أنواع من الجلود، وكان الرَّقَّ أَعْوَزَهم حين نزل الوحي على رسول اللهﷺ، وهو كما عرفة المبرد: " ما يرقق من الجلود ليكتب فيه" [6]، أما الأديم فمن الأُدْمَةُ وهي السُمرة، والآدَمُ من الناس: الأسمر، والأُدمَةُ في الإبل: البياض الشديد فيقال: بعيرٌ آدَمُ وناقةٌ أَدماءُ، والجمع أُدْمٌ، وأما القَضِيم فهو الجلد الأَبيض يكتب فيه، وقيل هي الصحيفة البيضاء، وقيل النِّطع وقيل هو الأَديم ما كان[7].

- **اللخاف والظرر**: قال الأَصْمَعِيُّ: اللِّخافُ ككِتابٍ أي حِجارَةٌ بِيضٌ رِقاقٌ واحِدُها لَخْفَةٌ بالفَتْحِ وفي حَدِيثِ زَيْد بنِ ثابت رضي اللهُ عنه: " فجَعَلْت أَتَتَبَّعُه من الرِّقاعِ واللِّخافِ والعُسُبِ"، أما الظِّرَارُ فيذكر الأَصمعي أن مفردها ظُرَرٌ، وهو حجر مُحَدَّدٌ صُلْب وجمعُه ظِرَار، وقيل هو الحجر المدَوّر وقيل قطعة حجر له حَدّ كحدِّ السكين والجمع ظِرَّان وظُرَّان، وهو حجر الصوان[8].

- **القراطيس والصحف**: القِرْطاس والقُرطاس كله الصحيفة الثابتة التي يكتب فيها، وفي قوله تعالى: ".. ولو نَزَّلنا عليك كتاباً في قِرْطاس.." - ﴿ الأنعام – 7 ﴾ - أَي في صحيفة وكذلك قوله تعالى: ".. تجعلونه قَراطِيس.." - ﴿ الأنعام – 91 ﴾ - أَي صُحُفا. أما الصحيفة فهي التي يكتب فيها والجمع صَحائفُ وصُحُفٌ وصُحْفٌ وفي التنزيل:" إن هذا لفي الصُّحُفِ الأُولى صُحُفِ إبراهيم وموسى" - ﴿ الأعلى – 18 و19 ﴾ - يعني الكتب المنزلة عليهما صلوات اللّه على نبينا وعليهما[9].

ولكن ما اشتهر من أسانيد الكتابة في العالم القديم، والعالم الإسلامي ثلاثة أنواع يمكن تصنيفها كما يلي:

### أ) ورق البـردي Papyrus

بردى: سليمان بن حسان: تعرفه أهل مصر بالعافر وهو الخوص، وهو نبات ينبت في الماء، وله ورق كخوص النخل، وله ساق طويلة خضراء إلى البياض عليه قيقلة كثيرة، ويتخذ هذا النبات كاغدا أبيضا بمصر يقال له القرطيس فمتى قيل في الطب قرطاس محرق فإنما يراد به القرطاس الذي يكون من البرس.. وهذا بصقلية موجود معروف بها، وأهل البلاد يسمونه **يبيير** بياءين معجمتين في النطق بنقطة واصلة من أسفلها بعدها ياء باثنتين من أسفل ثم راء، ومن هذا النوع من البرس كانت تتخذ القراطيس المستعملة في الطب بالديار المصرية وقد جهلت الآن، وهو عندهم في أماكن وبصقلية في بركة أمام قصر السلطان.. وصفَةُ عمل القرطاس عند المصريين في الزمان الأول كانوا يعمدون إلى سوق النوع فيشقونها بنصفين من أولها إلى آخرها، ويقطعونها قطعاً، وتوضع كل قطعة منها إلى لصق صاحبتها على لوح من خشب أملس ويأخذون ثمر البشنين ويلزجونه بالماء، ويضعون تلك اللزوجة على القطع ويتركونها حتى تجف جداً، ويضربونها ضرباً لطيفاً بقطعة خشب شبه الأرزية صغيرة حتى تستوي من الخشن فتصير في قوام الكاغد الصرف الممتلئ[10].

كما لكان ورق البردي أهم مادة استعمالها العالم اليوناني والروماني كسند للكتابة، فكان هذا الورق يؤخذ من نبتة تنمو في المستنقعات Cyperus papyrus، وبخاصة في مصر على دلتا النيل، وحسب الوصف المفصل الذي تركه لنا بلين الكبير في كتابه " التاريخ الطبيعي"، فإن ورق البردي كان يصنع من ساق تلك النبتة التي توجد تحت الماء، والتي يمكن أن يصل عرضها إلى عرض يد الإنسان، وبعد أن تزال كانت الساق تقسم إلى شرائح طولية تمتد إلى متر تقريبا ثم توضع الشريحة فوق الأخرى بشكل متصالب، وبعد ذلك كانت الشرائح تغمر بمياه النيل ثم تجفف تحت أشعة الشمس، وتصقل بعد ذلك وتسوى أطرافها أخيرا بحيث لا يتعدى طول الصفحة 25 – 30 سم، وإذا كان الأمر يتعلق بنص طويل فقد كانت تلصق عدة صفحات من هذا النوع بحيث يتشكل شريط يتراوح طوله من 6 إلى 10 أمتار، وفي حالات نادرة كان الشريط الواحد يمتد إلى 40 مترا وأحيانا أكثر من ذلك. ( أنظر: اللوحة رقم 1 )

### ب) الرقـوق الجلــدية Parchemin

يمتاز الرَّق بكونه ساندا جيدا للكتابة، ويُعتقد أن منطقة آسيا الصغرى أول من عرف هذه المادة واستخدمها مع نهاية القرن الأول للميلاد، ويختار لعمل الرقوق جلود الحيوانات الصغيرة للغنم، والماعز أو الغزلان، وكلما كان الحيوان صغيرا في السن كان نوع الرَّق المستخرج من جلده أفضل نوعا، وأكثر رقة، في حين يكون الرق المصنوع من صغار جلود العجول أكثر سمكا من سابقه وأقل طراوة، وعلى كل ليس باليسير التعرف على الحيوان الذي استخدم جلده لصناعة الرق.

وبشكل رئيسي تتوقف جودة الرق كساند للكتابة على خبرة، ومهارة الشخص الصانع، ومدى تمرسه من هذه الصناعة أولا، ومن ثم على نوع، وعمر الحيوان الذي استخدم جلده في التحضير، وهناك نماذج عديدة من الرق القديم الذي تضاهي جودته الرق الذي يصنع في الوقت الحاضر، وعموما فإن أهم ما يجب أن يتميز به الرق الجيد: أن يكون رقيقا طريا قابلا للَّف، والطي أو الثني بسهولة، وخاليا من العيوب كالشقوق والثقوب، صقيل السطح يساعد على الكتابة أو الزخرفة الدقيقة[11].

ولصناعة الرق كان يغطس الجلد أولا ثلاثة أيام في ماء الجير لكي يذوب عنه الشحم وبقايا اللحم، وبعد ذلك يزال الصوف عنه ويشد على إطار ملائم، ثم يعمل الصانع على دَلْكِ جانبيه بآلة هلالية الشكل مع زيادة الشد تدريجيا ليرطب في الأخير بالماء الساخن، وتستمر عملية الدلك على الوجهين بالتعاقب بحجر مسامي خاص، ثم تترك مدة من الزمن لكي تجف تماما، وفي النهاية كانت تؤخذ لتصقل من الطرفين وتقطع على شكل مربعات، وبهذا كان الجلد أخيرا يتحول إلى رق جاهز للاستخدام، حيث كانت الكتابة دائما تتم على الوجهين[12]. ( أنظر: اللوحة رقم 2 )

وقد بلغ أهل إفريقية في صناعة تجهيز الرق، وصقله، وتمحيره، وصبغه أحيانا بألوان مختلفة ما بين أخضر، ولازوردي، وأحمر قان، الغاية القصوى في الإتقان والنعومة حتى صار الرق من السلع التي يجهز فيها، ويرتفق بها إلى جميع آفاق المغرب، والأندلس، والعدوة الإفرنجية .. ودامت صناعة الرق في القيروان عموما في نمو وازدهار دهرا طويلا، وقد كتبت عليه المصاحف، والصكوك، والعقود إلى آخر القرن الثامن للهجرة في الفترة التي انقطع فيها استعماله في المشرق، على أن وجود الرق واستعماله في كتابات معينة لم يمنع الأفارقة من اتخاذ الكاغد والكتابة عليه فقد كانا مستعملين معا في وقت واحد[13].

### جـ) الورق ( الكاغد) Kâgad

يعد الكاغد أرقى ما توصلت إليه البشرية كسند للكتابة، ويطلق مصطلح الوَرَق على وَرَق الشجرة، والشوك، والكِتاب الواحدة منه وَرَقةٌ، وفي الصحاح الوَرِقُ الدراهم المضروبة من الفضة، وقد سمي الوراق وراقا لأنه يكتب المصاحف، وكتب الحديث وغيرها، وقد يقال لمن يبيع الورق وهو الكاغد ببغداد : الوراق أيضا[14]. وكانت العرب حتى القرن الثامن الميلادي مثلهم مثل بقية الشعوب في ذلك الوقت، غالبا ما يستعملون الرق للكتابة ثم أخذوا يستعملون ورق البردي بعد فتح مصر، ولكن القفزة التي حدثت لاحقا في إنتاج الكتاب لم تكن ممكنة لولا ظهور مادة جديدة ورخيصة للكتابة وهي الورق، وحول هذا يسجل المؤرخون المسلمون حادثة، لها ما يؤكدها في المصادر الصينية، تتعلق ببداية إنتاج الورق في العالم الإسلامي، وكما يروي هؤلاء المؤرخون فقد اندلع في صيف سنة 135هـ/ 751 م نزاع بين قبيلتين تركيتين في آسيا الوسطى، وطلبت حينئذ كل قبيلة المساعدة من جيرانها، الأولى من المسلمين، والثانية من الصينيين، وقد انتهت حينئذ المعركة بين هاتين القبيلتين بفوز القبيلة التي يدعمها المسلمون، مما أدى إلى أسر بعض الصينيين الذين كانوا يعرفون سر إنتاج الورق، ونقل المسلمون هؤلاء الأسرى إلى مدينة سمرقند، حيث أسسوا بمساعدتهم أول معمل لصنع الورق، وخلال فترة قصيرة أصبحت هذه المدينة معروفة بورقها الممتاز الذي كانت تنتجه، وتصدره إلى كثير من البلاد العربية، وفي نهاية القرن الثامن الميلادي، وبمساعدة الصينيين بدأ إنتاج الورق في بغداد نفسها حيث تأسس أول مصنع للكاغد في بغداد بإشارة من الوزير الفضل بن يحيى البرمكي في خلافة هارون الرشيد سنة 178 هـ/ 794 م، وأمر الفضل أخاه جعفر البرمكي بإحلال ورق الكاغد محل القراطيس البردية في الدواوين ، والمراسلات. وقد كان الورق الصيني مصنَّعا من الحرير، ولغلاء هذه المادة استبدل المسلمون الحرير بالقطن، كما أنهم استفادوا من الأسمال في هذه الصناعة، فتقدمت صناعة الورق على أيديهم تقدما كبيرا وبلغوا شأوا لم يُسبق، وأصبح رخيصا جدا مما أثر على انتشار ورق البردي، ففي منتصف القرن العاشر الميلادي أفلت صناعة الورق من البردي في مصر، وانحصرت صناعة القراطيس في مصر السفلى فقط[15].

وكان أجود أنواع الورق، الكاغد الصيني الذي ناله التغيير على أيدي المسلمين بما أدخلوه عليه من تحسينات بعد تنقيته من الشوائب التي كان يضعها فيه الصينيون من ورق التوت والغاب الهندي ، وانتشر الكاغد بهذه الطريقة الجديدة ببلاد ما وراء النهر في القرن الثالث الهجري ثم انتقل إلى العراق، وطرابلس الشام ودمشق، هذه الأخيرة التي ظلت لوقت طويل تنتج أفضل أنواع الورق الذي كان يصدر إلى عدة بلدان أوربية، والذي اشتهر باسم مصدره ( الورق الدمشقي )، ورغم انتقال صناعة الورق إلى مصر، وشمال إفريقيا، والأندلس، ورغم أنه عم المشارق والمغارب، إلا أن سمرقند احتفظت بمكانتها الأولى في إنتاجه، وظل الكاغد مرتبطا بهذه المدينة مثل ما كان البردي مرتبطا بمصر ، ويصنف القلقشندي أجود الورق في زمنه فيقول: " وأحسن الورق ما كان ناصع البياض غرقا صقيلا متناسب الأطراف صبورا على مرور الزمان ، وأعلى أجناس الورق فيما رأيناه البغدادي، وهو ورق ثخين مع ليونة ورقة حاشيته وتناسب أجزائه وقطعه وافر جدا ، ولا يكتب فيه في الغالب إلا المصاحف الشريفة ، وربما استعمله كتاب الإنشاء في مكاتبات القانات ونحوها .. ودونه في الرتبة الشامي، وهو على نوعين نوع يعرف بالحموي وهو دون القطع البغدادي، ودونه في القدر وهو المعروف بالشامي وقطعه دون القطع الحموي ، ودونهما في الرتبة الورق المصري وهو أيضا على قطعين القطع المنصوري، وقطع العادة، والمنصوري أكبر قطعا وقلما يصقل وجهاه جميعا ، أما العادة فإن فيه ما يصقل وجها يسمى في عرف الوراقين المصلوح، وغيره عندهم على رتبتين عال ووسط ، وفيه صنف يعرف بالفوي صغير القطع خشن غليظ خفيف الغرف لا ينتفع به في الكتابة يتخذ للحلوى، والعطر ونحو ذلك .. ودون ذلك ورق أهل المغرب والفرنجة فهو رديء جدا سريع البلى قليل المكث، ولذلك يكتبون المصاحف غالبا في الرق على العادة الأولى طلبا لطول البقاء.[16]". وفي وقت لاحق طروت بلدان المغرب هذه الصناعة – صناعة الورق – والتي انتقلت عبر بوابها لتصل أخيرا إلى أوربا، وبالتحديد إلى إسبانيا، فيذكر الإدريسي في القرن السادس الهجري أنه يُعمل بمدينة شاطبة من مقاطعة بلنسية بالأندلس من الكاغد ما لا يوجد له نظير في معمور الأرض، وأنه يعم المشارق والمغارب[17].

وبقي العالم الإسلامي وفيا لاستعمال الرق كمادة للكتابة رغم انتشار ورق الكتابة، إذ بقي مستعملا لفترة غير وجيزة في كتابة مصاحف القرآن كما بقي ورق البردي مستعملا لفترة أخرى أيضا، فبغداد نفسها، وهي أكبر مركز لإنتاج الكتاب في العالم الإسلامي حينئذ، لم يظهر فيها أول كتاب على الورق إلا سنة 264 هـ/ 870 م، وفي الواقع فقد استمرت المنافسة بين ورق البردي والورق الجديد حتى القرنين 12- 13م، حين أنهى الورق الجديد، تماما استعمال ورق البردي كسند للكتابة، أما المغرب الإسلامي فقد كان التحول إلى استخدام الورق متأخرا فيه حيث ظل الرق هو المادة المستخدمة في الكتابة حتى القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وبخاصة المصاحف المغربية التي ظلت حتى وقت قريب تكتب على الرق طلبا لطول البقاء[18].

وكان الأوروبيون في القرون الوسطى يكتبون على الرقوق، فكان غلاء أسعارها مانعا من توافر المخطوطات، وفي القرن الثالث عشر الميلادي انتشر إنتاج الورق خارج العالم الإسلامي في أوربا بعد أن كان حكرا على المسلمين، ففي ذلك الوقت تقريبا انتهى احتكار المسلمين لإنتاج الورق والاتجار به، بعد أن بقي في أيديهم حوالي 500 سنة[19]، وقد كان استعمال الورق من أعظم العوامل التي عملت على نشر المعارف في بلاد الغرب[20].

### 2) . الوراقة والتدوين

يقال ورّق أي نسخ ونقل نصاً وهو فعل ما يفعله الورّاق، وكان العمل بالوِراقة — نسخ النصوص والكتب – من أجود الصنائع، لما فيها من الإعانة على كتابة المصحف وكتب العلم، ووثائق الناس وعهدهم، فمن شُكْرِ صاحبها نعمة الله أن يَرفِقَ

بطالب العلم وغيره، ويرجح من يعلم أنّه يشتري الورق لكتابة كتب العلم، ويمنع عن بيعه لمن يعرف أنه يكتب ما لا ينبغي، من البدع والأهواء وشهادات الزور والمرافعات وأمثال ذلك[21].

وكانت جودة الخط، وصحة النقل، ودقة الضبط شروطا أساسية للنجاح في صناعة الوراقة فقد حفظ لنا التاريخ أسماء عدد كبير من الوراقين اللذين امتهنوا هذه المهنة، واشتهروا بحسن الخط كابن البواب ( 423هـ/ 1032م ) الذي عرف بالوراقة ونسخ المصاحف، والعناية بإخراجها، والتأنّق بجمالها، وقد نسخ القرآن الكريم بيده أربعاً وستين مرة، إحداها بالخط الريحاني لا تزال محفوظة في مكتبة " لاله لي" بالقسطنطينية[22].

وكان أهل هذه الصناعة على عدة أنماط من التوريق، الأول: أن يعطي المؤلف كتابه إلى وراق لينسخ منه نسخا يبيعها في الأسواق، ويتم هذا العمل بأن يأخذ الوراق الكتاب ثم يجلس ليملي على مجموعة من النساخ قلت أو كثرت، وعندما ينتهي الوراق من إملاء الكتاب، يكون قد حصل من النسخة الواحدة على نسخ بعدد الناسخين.

والنمط الثاني: أن يجلس العالم نفسه فيملي درسه، ويكتب الناس ما أملاه، ومن هؤلاء الكتاب طالب العلم الذي ينسخ لنفسه، ومنهم الوراق الذي يعمل على تكثير نسخ الكتاب بغرض بيعها في الأسواق.

وهناك نمط ثالث: هو أن ينسخ الوراق كتابا لمن يطلبه من الزبائن، كما كانوا يفعلون في نسخ المصاحف الشريفة[23].

ومن الوراقين ما كان أديبا كابن النديم وياقوت الحموي، وأبي حيان التوحدي، ولنا في شكوي هذا الأخير القواعد الأساسية التي تقوم عليها صناعة التوريق حيث يقول:" ولقد استولى عليَّ الحُرْف، وتمكن مني نكد الزمان إلى الحد الذي لا أسترزق مع صحة نقلي، وتقييد خطي، وتزويق نسخي، وسلامته من التصحيف، والتحريف بمثل ما يسترزق البليد الذي ينسخ النسخ، ويمسخ الأصل والفرع .."[24]، وقد يقوم الوراق بانتساخ الكتب، وتصحيحها، ونشرها بين الناس بنفسه، أو يكون غيره وله من ينسخون له، بالإضافة إلى ما يستتبع عملية النسخ من تجليد، وتذهيب، وبيع الورق، والمحابر والدوىّ، أي أن الوراقين كانوا يجمعون بين ما تقوم به دور النشر والمكتبات اليوم، من طبع وتوزيع الكتب، وبيع الورق وأدوات الكتابة[25].

ومن الوراقين كذلك من اشتغل بحرفة الوراقة ثم انتقل إلى وظائف ومهن أخرى ككتابة الإنشاء في دواوين الخلفاء، والأمراء، والولاة، والوزراء، وغيرهم ممن يحتاجون إلى الكتاب، فالخطاط ابن مقلة ( 272 – 328 هـ/ 866 – 940 م ) كان وزيراً لثلاثة خلفاء، ولفترات مختلفة، فقد كان وزيراً للمقتدر بالله، وللقاهر بالله، وللراضي بالله، وسوء خاتمته معروفة لدى العام والخاص. كما اشتغل بالكتابة جمهرة من العلماء والشعراء وغيرهم كثير، حتى اقترن اسم بعضهم بلقب ( الوراق )، فظهرت منهم طبقات الوراقين وتعددت أصنافهم تبعا لذلك، فمنهم الوراقون المستملون الذين انتجوا لنا الكتب التي عرفت بالأمالي، ووراقو الحديث، والوراقون العلماء، والوراقون الأدباء، والوراقون النساخون، ووراقو العلماء أي الذين اشتغلوا لدى العلماء، والأدباء، والوزراء، وحتى الوراقون الدلالون، والوراقون القضاة، والوراقون الفولكلوريون، وما إن حلت سنة ( 279 هـ/ 873 م ) حتى خضعت هذه الحرفة لمراقبة الدولة، ففي هذه السنة أمر السلطان أن ينادي المنادي ببغداد أن لا يقعد على الطريق ، ولا في مسجد الجامع ناص ، ولا صاحب النجوم، ولا زاجر، وحلف الوراقون أن لا يبيعوا كتب الكلام والجدل والفلسفة[26].

لقد كانت الوراقة حرفة مربحة، وكانت أسعار النسخ ترتفع بمرور الزمن، وكان الوراق المتقن الجيد الخط الصحيح النقل مقصد أنظار العلماء، وطلاب العلم، وكان هؤلاء الوراقون المتقنون ربما قصدوا العلماء لعرض الكتب عليهم، ونسخها لهم وفق أجر معلوم، ومن خلال الإشارات التي ذكرتها كتب التراجم نستطيع أن نقف على كيفية ممارسة هذه المهنة ومقدار ما كانوا يكسبون، فقد حدث أبو القاسم بن بنت منيع ( ت 317هـ/ 929م ) قال: " كنت أورق فسألت جدي أحمد بن منيع أن يمضي معي إلى سعيد بن يحي بن سعيد الأموي ، يسأله أن يعطيني الجزء الأول من المغازي عن أبيه عن ابن إسحاق حتى أورقه عليه فجاء

معي وسأله فأعطاني الجزء الأول، فأخذته وطفت به، فأول ما بدأت بأبي عبد الله بن مغلَّس وأريته الكتاب ، وأعلمته أني أريد أن أقرأ المغازي على سعيد الأموي، فدفع إليَّ عشرين دينارا، وقال: اكتب لي منه نسخة، ثم طفت بعده بقية يومي، فلم أزل آخذ من عشرين دينارا إلى عشرة دنانير وأكثر وأقل ، إلى أن حصل معي في ذلك اليوم مائتا دينار ، فكتبت نسخا لأصحابها بشيء يسير من ذلك، وقرأتها لهم، واستفضلت الباقي[27] ".

وقد تمكن بعض الوراقين من كسب ثروة طائلة من هذه المهنة، فقد حدث عيسى بن أحمد الهمذاني قال : " قال لي أبو علي بن شهاب العبكري يوما: أريني خطك، فقد ذُكر لي أنك سريع الكتابة ، فنظر فيه فلم يُرضِه ، ثم قال لي : كسبت في الوراقة خمسة وعشرين ألف درهم راضية — نسبة إلى الخليفة الراضي بالله –، قال: وكنت أشتري كاغدا بخمسة دراهم، فأكتب فيه ديوان المتنبي في ثلاث ليال، وأبيعه بمائتي درهم، وأقله بمائة وخمسين درهما، وكذلك كتب الأدب المطلوبة[28] ".

ومن الدلائل على رواج هذه المهنة وما تدره من ربح جيد، أن بعض القضاة كان يتحسر على أيامه حين كان يشتغل بالوراقة، ويندم على ما صار إليه من سوء حال وهو قاض، فقد روي عن أبي عبيد علي بن الحسين بن حرب البغدادي الفقيه الشافعي قاضي مصر، – وكان من أهل المئة الرابعة ولي قضاء واسط قبل مصر –، قال الفقيه أبو بكر بن الحداد: " سمعت أبا عبيد القاضي يقول: ما لي وللقضاء. لو اقتصر ت على الوراقة، ما كان خطي بالرديء. وكان رزقه في الشهر مائة وعشرين ديناراً[29]". كما احترف الوراقة بعض العلماء والفقهاء والمحدثين، إذ وجدوا فيها مهنة حرة شريفة تدر الربح الحلال، وتوفر العيش الكريم، ومن أكابر العلماء من كان يكسب عيشه من الوراقة كأبو العباس محمد بن محمد بن يعقوب الأموي الأصم ( 247 — 346 هـ/ 887 – 958م )، "كان يورق ويأكل من كسب يده وربما عابه قوم بأخذ شيء على التحديث، وإنما كان يفعل هذا ابنه، وَوَرَّاقُه فأما هو فإنه كان يكره ذلك وحدَّث ستا وسبعين سنة سمع منه الآباء، والأبناء، وأبناء الأبناء، وكانت الرحلة إليه من البلاد متصلة[30]".

ومن الفقهاء الذين عنوا بالوراقة في أواسط القرن السابع الهجري: " الشيخ الفقيه، الكاتب الأديب البارع، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد ابن أحمد الأريسي المعروف بالجزائري : هو حفيد الفقيه الجليل أبي عبد الله الأريسي .. من أدباء الكتاب وهو من نظراء شيخنا أبي عبد الله التميمي في علم النظم والقريض ومن أصحابه، كان حسن النظم والنثر، مليح الكتابة حسن الوراقة في البطاقة، وكان سهل الشعر، وكان كثير التجنيس يأتيه عفوا من غير تكلف، ولأجل ذلك حسن نظمه. وكان مليح التواشيح، إن طال في شعره أعرب، وإن اقتصر واقتصد أعجب. وكان شيخ كتبةالديوان ببجاية[31]".

على أن هذه الصورة المشرقة للوراقة لم تكن عامة، بل كان هناك من العلماء، والأدباء الذين امتهنوا الوراقة، واتخذوها سبا في معاشهم، ويرون فيها ( حرفة الشؤم ) كما سماها أبوحيان التوحيدي الذي ترك بغداد، ورحل إلى الصاحب بن عباد هربا من حرفة الوراقة حيث يقول: " إنما توجهت من العراق إلى هذا الباب، وزاحمت منتجعي هذا الربيع لأتخلص من حرفة الشؤم، فإن الوراقة لم تكن ببغداد كاسدة، فنمى إليه هذا أو بعضه أو على غير وجهه فزاده تنكراً[32]".

وقد كانت دكاكين الوراقة منتشرة بالأسواق منذ ظهورها، واستمر الأمر على ذلك النحو حتى العهد العثماني بالجزائر حيث كانت الكتب تنسخ بالسوق المعروفة بالقيسارية وفي هذا الصدد يقول حمدان بن عثمان خوجة: " لقد أمر السيد الجنرال كلوزيل بتهديم محلات تدعى القيسارية كانت تبيع الكتب التي هي أدوات الحضارة، والتي تنير طريق الإنسان المثقف، وفيها كان يوجد النسَّاخون — الوراقون –، لأن المطابع معدومة في إفريقيا .. فلماذا وقع تهديم هذا المصدر الذي كان يعطي العلم، والمعرفة في جميع الميادين[33]"، وقد كانت تركات الفقهاء، والعلماء، والقضاة، وغيرهم من كتب ومخطوطات تباع مزايدة بأسوق الدلالة بالجزائر، وكانت هذه الأسواق توثق في عقود المحكمة الشرعية تحت اسم : " أماكن الرغبة ومضان الزيادة"[34].

وخلاصة القول أن حرفة الوراقة ارتقت وتطورت بفعل تطور سندات الكتابة التي كانت المادة الأساسية التي ينسخ منها الوراقون المصاحف، وكتب العلم والأدب ومختلف الفنون الأخرى، مما منح المجتمع حركية ظاهرة، إذ كان للعلماء، والفقهاء، وغيرهم من الأعيان، وأهل الوظائف حظ وافر في الوراقة، وكانت المهنة الشريفة التي يمكن ممارستها بكرامة، ودون اللجوء إلى باب السلطان إذا ما ضاقت بهم الدنيا، وأن تركاتهم كانت تعد ثروات هائلة من منتجات هذه الحرفة.

**الهوامش**

**([1]) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، ج3، دار صادر، بيروت 1900، ص 344.**

**([2]) عفيف البهنسي، الخط العربي أصوله نهضته انتشاره، ط1، دار الفكر، بيروت 1984، ص 24.**

**(3) نفس المرجع، ص 25.**

**(4) القلقشندي، صبح الأعشى، ج2، ص ص 515 – 516.**

**(5) لسان العرب، ج8، ص 27. تاج العروس، ج1، ص 760 و ص 6091.**

**(6) لسان العرب، ج8، ص 27، وصبح الأعشى، ج1، ص 378. وكذلك الصحاح في اللغة للجوهري، ج1، ص8.**

**(7) لسان العرب، ج12، ص 487.**

**(8) تاج العروس، ج1، ص 6117، ولسان العرب، ج8، ص 27 و ج4، ص 517.**

**(9) لسان العرب، ج6، ص 172 و ج9، ص 168.**

**([10]) ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، موقع الوراق، ص 85.**

**([11]) ناصر عبد الواحد، "أهم المواد التي استخدمت في التدوين والتدقيق وطرق صناعتها"، في مجلة التراث والحضارة، العدد 5، المركز الإقليمي لصيانة الممتلكات الثقافية في الدول العربية، بغداد 1983، ص 73.**

(12) الكسندر ستيبتشفيتش، تاريخ الكتاب، القسم الأول، ترجمة: محمد م. الأرناؤوط، عالم المعرفة، عدد 169، الكويت يناير 1993، ص 81.

(13) أيمن فؤاد سيد، الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات، الدار المصرية اللبنانية، ط1، القاهرة 1997، ص 30 – 31.

(14) أبي سعد السمعاني، الأنساب، تقديم وتعليق: عبد الله عمر البارودي، مركز الخدمات والأبحاث الثقافية، الجزء الأول، دار الجنان، ط1، بيروت 1988، ص 584.

(15) شريف يوسف،" أهم الصناعات العربية الإسلامية وأثرها في الغرب"، في أفاق عربية، العدد1، أيلول 1979، ص 37.

(16) صبح الأعشى، ج2، ص ص 516 – 517.

(17) الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مطبعة بريل، ليدن 1866، ص 192.

(18) أيمن فؤاد سيد، المرجع السابق، ص 19.

(19) الكسندر ستيبتشفيتش، المرجع السابق، ص ص 219 – 220.

(20) شريف يوسف، المرجع السابق، ص 38.

(21) شمس الدين محمد بن طولون الصالحي الدمشقي، نقد الطالب لزَغلِ المناصب، حققه: محمد أحمد دهان وخالد أحمد دهان، راجعه: نزار أباضة، دار الفكر المعاصر، ط1، بيروت 1992، ص 179.

(22) الأعلام، ج5، ص31. ودائرة المعارف الإسلامية ج1، ص 226.

(23) يحي وهيب الجبوري، الكتاب في الحضارة الإسلامية، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت 1988، ص ص 79–78.

(24) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، 143/2.

(25) يحي وهيب الجبوري، نفس المرجع، ص 65.

(26) ابن الجوزي، المنتظم، ج5، ص 122.

(27) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت، ج 10، ص ص 113– 114.

(28) الخطيب البغدادي، المصدر السابق، ج7، ص 329.

(29) الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، ط1، بيروت 1987، ص 587.

(30) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دار صادر، ط1، بيروت، ج6، ص 386.

(31) أحمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد، أبو العباس الغِبْرِيني (ت 714هـ)، تحقيق وتعليق: عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، ط 2، بيروت 1979، ص 337.

(32) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج2، ص 147.

(33) خوجة ( حمدان بن عثمان )، المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق : محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1975، ص 277.

(34) هذه المعلومات أفادنا بها الأستاذ: خليفة حماش عن مقال نشر له بعنوان:" سعر الكتاب قبل عهد الطباعة في الفضاء العثماني: حالة مدينة الجزائر نموذجا".